الباب الرابع

اللاشعور

لكي ندرك ما هو اللاشعور يجب أن نعرف ما هو الشعور ، فأنا أشعر بالحر أو البرد أو بثقل الملابس على جسمي ، أو بصوت يناديني ، أو أشعر بالألم أو بالجوع او بالراحة أو بالسرور . . . الخ ومعنى ذلك أن حالة خاصة قد قامت بالنفس أسميناها الشعور بالحر أو البرد أو الألم أو الجوع . غير أن الشعور ذاته ، من خواص النفس بصرف النظر عما تشعر به . فالنفس لا تستطيع إلا أن تشعر ، وهي تشعر في كل لحظة من لحظات الحياة ، حتى إن أحدهم قد شبّه الشعور بتيار الماء الذي لا ينقطع ، يتغير ماؤه من لحظة لأخرى ، وقد تتغير سرعته أو اتساعه أو عمقه ولكنه لا ينقطع بتاتا ، والانسان يشعر حتى أثناء نومه بدليل أن النداء أو الطَّرق يوقظه ، وغاية ما في الأمر أن هذا الشعور ضئيل حتى ليحتاج إلى المنبِّه القوي لكي يصل إلى التأثير الواضح .

وقد اهتم علم النفس اهتماما عظيما بدراسة الشعور ، بل إنه اقتصر عليه إلى عهد قريب ، ولعل هذا لا يتضح لنا بأكثر مَن أن نذكر أن علم النفس كان يعرَّف بأنه "علم دراسة الشعور" لأن كل ماتحويه النفس يحويه الشعور ، فكل ماندرك أو نتذكر إنما نشعر به ، نشعر بكل ماينتابنا من خوف أو ألم أو فرح أو سعادة أو ارتياح ، نشعر بأننا نفكر أو بأننا نريد أو بأننا نحب أو بأننا نكره . . فماذا بقي من النفس بعد الشعور ؟ لا شيء ، إذن فالشعور هو الخاصة الأساسية من خواص النفس ، وهو خاصة ملازمة لها طول الوقت ، فلو درسنا أحوال الشعور ومظاهره فقد درسنا النفس . فكل وظيفة تقوم بالشعور إنما تقوم بالنفس وبالعكس كل ما يقوم بالنفس يقوم أيضا بالشعور .

وقد عكف علم النفس على دراسة الشعور مدة طويلة وفسَّر جميع الظواهر النفسية على أساس الشعور حتى أواخر القرن الماضي حينما بدأ الباحثون

فى الطب النفسى يواجهون مظاهر وحالات توحى بأن فى النفس طبقات عميقة لا يصل الشعور إلى عمقها، وإنما هى خارج أعماقه، وكانت ظاهرة التنويم المغناطيسى من أولى الظواهر التى لفتت النظر إلى ذلك، وتبعته ظواهر أخرى كالأحلام وفلتات اللسان وأعراض الاضطراب والجنون وغيرها .

وقد كان علماء النفس ينظرون إلى نفس الانسان كما ينظر الرائى إلى ماء النهر فيظن أن كل ماهنالك من ماء هو مايحويه المجرى الذى يستطيع أن يلمسه ويقدر طوله واتساعه وعمقه بأيسر الطرق . ولكن فات هذا المشاهد السطحى أن ماء النهر إنما يتسلل فى شقوق الأرض ومساربها فيملأ فجواتها ، ومابين حبّاتها ، ويشرّبها ويشبعها، ولايمتلئ المجرى حتى تكتفى هذه المساريب والشقوق وحتى تتشبع التربة فى كل نواحيها . ولو قدرنا كمية الماء جميعا لوجدنا أن مايملأ المجرى ليس إلا جزءاً منها، وكثيرا مايكون القدر الذى "يضيع" فى باطن الأرض أكبر من القدر الذى يظهر على سطحها ، وإن هنالك أنهارا تختفى فى باطن الأرض اختفاءً قبل أن تظهر على السطح مرة أخرى فى مكان آخر ، لأن الباطن قد ابتلع الماء كله فى المواضع الأولى (١)

فكما أن ماء النهر لايظهر فى المجرى فقط فكذلك محتويات النفس لاتظهر كلها فى تيار الشعور ، وكما أن ماء النهر إذ يتسرب إلى الباطن فإنه يظهر فى مواضع بعيدة عنه على شكل عيون أو آبار أو نافورات .. الخ مما لايبدو له صلة مباشرة بالنهر، فكذلك تظهر المحتويات النفسية "الغائرة" فى الأحلام وفلتات اللسان وظواهر العصاب والجنون ... الخ وكما كان من العسير تحديد العلاقة بين ماء الآبار والينابيع وبين ماء النهر قبل دراسة ظاهرة التسرب ، وعمل "المجسّات" المختلفة فى مواضع عديدة ، كذلك كان من غير الممكن ربط هذه الظواهر النفسية الشاذة بالتيار النفسى العام قبل دراسة العوامل التى تكوّن هذه الطبقة "التحتيّة" العميقة من النفس وهى اللاشعور .

ولو سمحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى هذا التشبيه لوجدنا أننا نقع فيه على أكثر من مقابلة . فمن المعروف أن مدى تسرب الماء إلى الباطن فى منطقة

---

(١) أنظر كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق ص ٩٦

ما من النهر ، يؤثر على كمية الماء ، على اتساعه وعمقه ، وعلى سرعته ، وبعبارة أخرى فإن الجزء الظاهر من تيار الماء تتوقف خواصه وصفاته على الجزء المتسرّب ، فضلا عن أن لهذا الجزء المتسرب آثارا كبيرة فى القشرة الأرضية ، فمن مواد يذيبها ، إلى صخور يفتتها ، إلى نافورات يفجرها . . الخ ، وكذلك نجد أن ما ينحدر من الشعور إلى أعماق النفس ويصبح لاشعوريا يؤثر فى سلوك الإنسان الظاهر أثرا كبيرا .

وقد جعل التحليل النفسي من "اللاشعور" أساسا لتفسير الظواهر النفسية . وقد يتبادر إلى الذهن أن اللاشعور يتكون من كل ما هو "منسى" من عقل الإنسان ، والواقع غير ذلك فهنالك نوعان من النسيان : الأول نسيان سطحى ينصب على أشياء يمكن استعادتها بسهولة ، كالآبار التى تحفر بجوار مجرى النهر مباشرة ، فنحصل على الماء منها بلا كبير عناء ، وهنالك نسيان عميق لا نصل إلى عمقه إلا باستخدام وسائل خاصة وبذل مجهود شاق .

ولكي ندرك العلاقة بين هذين النوعين من النسيان وبينهما وبين الشعور نأخذ لحظة معينة فى حياة أى شخص ، ففى هذه اللحظة يكون الشخص "شاعرا" بأفكار ورغبات وإحساسات . . . الخ شعورا عقليا . ولكن هذه لا تمثل كل محتويات[1] عقله ، فهنالك محتويات أخرى ليست فى شعوره ، ولكنه يستطيع أن يستدعيها إلى الشعور بمجهود قليل أو كثير ، مثال ذلك أسماء أصدقائه وأقاربه وأرقام "تليفوناتهم" وما صرفه من النقود بالأمس وما يحفظه من شعر أو نثر وغير ذلك من حوادث الحياة اليومية ، وهذه المحتويات التى يستطيع الشخص أن يبرزها إلى شعوره أو "يذكرها" بمجهود عادى قل أو كثر ، تكوّن طبقة من العقل تحت الشعور مباشرة ومنها يستمد الشعور محتوياته العادية . وتبادل المحتويات والأفكار والرغبات ... الخ بين الشعور و "تحت الشعور"[2] سهل هيّن ، وهو من لوازم حياتنا اليومية ، فعندما أكتب خطابا يكون موضوع الخطاب فى شعورى

(1) Contents

(2) Pre—Conscious

obeikandi.com

بينما أسعار الحاجيات تحت الشعور ، و بالعكس عندما أبدأ فى حساب مصروف اليومى يخدر موضوع الحطاب إلى ما تحت الشعور بينما تبرز أسعار الحاجيات إلى الشعور .

ولكن ليس هذا كل شىء إذ أن هناك علاوة على الطبقتين السالفتين من طبقات العقل طبقة " اللاشعور " وهى طبقة عميقة غاية العمق ، مخفية عن الشخص غاية الخفاء ، وهى زاخرة بالمحتويات العقلية من أفكار ورغبات و جميعها تتدافع وتلح لكى تبرز إلى الشعور ولكنها لاتستطيع ذلك إلا إذا دخل عليها تغيير أساسى ، كما أن صاحبها لايستطيع أن يذكرها و يبرزها إلى شعوره بأى مجهود " عادى " يبذله ، وهى بالرغم من هذا كله ذات أثر كبير جدا فى توجيه سلوكه وتكييف شخصيته ، فهذه الرغبات المخفية تستطيع من مكنها أن تؤثر فى تصرفاته آثارا ربما لاتستطيعها رغباته الواضحة التى يشعر بها و يعرفها . أما كيف تكونت هذه الطبقة العميقة من العقل وكيف خفيت على صاحبها وكيف تؤثر فى سلوكه وشخصيته كل هذا الأثر ، فهو ماسنتكلم عنه فيما يلى من الفصول .

وقد وُلدت فكرة التحليل النفسى ونشأت فى محيط العلاج الطبى النفسى ، وقد اشتهر فى هذا العلاج " شاركوه "(١) فى أواخر القرن الماضى فى فرنسا ، وتلميذه " جانيه(٢) " وقدتوصل الاثنان فى علاجهما لبعض حالات الهستريا إلى أن المرض يرجع فى أصله إلى " ذكريات " وحوادث قديمة ، وأن أعراض المرض تشتق صورتها من هذه الحوادث ولذلك فإنها تتخذ صورا خاصة ، وأنّ المعالج يمكنه بمراقبة هذه الصور أن يكشف " المعنى " النفسى الذى يكُمن وراءها ، والذى هو ذو علاقة وثيقة بالحوادث النفسية السابق ذكرها . و بعبارة أخرى فإنه يستطيع أن يترجم الأعراض الحاضرة فى ضوء الحوادث الماضية ، فمثلا قد تجد مريضا مصابا بشلل هستيرى فى اليد فيكون لظهور هذا العرض معنى معين فاليد عضو قد يستخدم فى الاعتداء والمريض قد يكون راغبا بدون علمه " أى لا شعوريا " فى الاعتداء على شخص عزيز عليه فتكون نتيجة هذا الموقف المتناقض أن تُشلّ يده وفى هذه الفكرة نجد البذرة الأولى لمذهب التحليل النفسى .

(١) J. M. Charcot (٢) P. Janet

أما الخطوة التى تعتبر مبدأ حقيقيا لهذا العلم فقد أتت عن طريق "بروير[1]" وهو طبيب من فينا درس على "شاركوه" . ففى حوالى سنة ١٨٨٠ لاحظ أثناء علاجه لحالة من حالات الهستريا . أن أعراض المرض كما سبق أن بينا لها معان معينة فهى تشير إلى حوادث قديمة مدفونة . ولكنه اكتشف أيضا أنه إذا نوّم المريض تنويما مغناطيسيا أمكنه عن طريق الايحاء المناسب . أن يعيد إلى ذاكرته ما سبق أن فقدته من هذه الحوادث و "الذكريات" .

وقد لاحظ أن حالة المريض كانت تحسن كثيرا بعد هذا التذكر وكان يماثل للشفاء . وكان هذا الكشف الأخير أهم كشوفه ، وهو يعتبر البدء الحقيق لتاريخ مذهب التحليل النفسى ، وقد استمر "بروير" فى استخدام طريقته فى العلاج حتى انضم إليه "سيجمند فرويد[2]" وهو طبيب نفسانى آخر درس على "شاركوه" أيضا بعض الوقت فى باريس ثم عاد إلى فينا وعمل مع "بروير" ، وقد حمل هذا الأخير على نشر نتائج كشوفه فظهر بحث مشترك لهما فى سنة ١٨٩٣ ، وفى سنة ١٨٩٥ ظهر أول كتاب فى تاريخ التحليل النفسى باسم " دراسات فى الهستريا " .

وقد استقل "فرويد" بعد ذلك بالعمل وظل طوال أربعين سنة أو أكثر يجمع نتائج دراسته وعلاجه وينشرها فى كتب ، ويلقيها فى محاضرات ، وجمع حوله نفرا من التلاميذ انتشر عن طريقهم مذهبه فى التحليل النفسى فى ممالك مختلفة أهمها ألمانيا وانجلترا وأمريكا ، وقد صدر عن "فرويد" وتلاميذه مئات المؤلفات والنشرات والمجلات ومن تلاميذه من ابتدع نظريات جديدة فى علم النفس يمكن أن تعتبر مشتقة من (التحليل النفسى) ولكنها انحرفت عن بعض أسسه انحرافا كان كافيا لأن يجعل منها مدارس جديدة قائمة بذاتها ، منها مدرسة "يونج[3]" صاحب علم النفس التحليلى ، ومنها مدرسة "أدلر[4]" صاحب علم النفس الفردى ، وقد جعل "فرويد" من اللاشعور أساسا للتفسير النفسانى . ويتميز اللاشعور عن الشعور

(١) Joseph Breuer

(٢) Sigmund Freud

(٣) C. G. Jung

(٤) Alfred Adler

بميزات عدة ، فهو لاشخصي (١) أى أنه لا يحمل طابع الذاتية الذى يحمله الشعور فأنا اذ أتكلم عن رغبتى فى تناول الطعام انما أشعر بأن الرغبة منبعثة عن ذاتى ، فالشعور ذاتىّ ولكن اللاشعور خلافه فى ذلك . فعند ما نتحدث عن آثاره إنما نتحدث عن شىء غريب عنا فنقول إن " شيئا " جعلنى أنسى أو جعلنى أهفو أو جعلنى أخطىء . ولعل فى نسبة ألوان من السلوك الغريب للانسان الى الشياطين ومن اليهم من الكائنات الخارجية ما يؤكد هذا المعنى .

واللاشعور غير خلقى (٢) ، بمعنى أن ما يصدر عنه لا تحدده أية قوانين خلقية ولا اجتماعية من أى نوع ، فعالم الخلق والاجتماع لا ينفذ الى غياهب اللاشعور ، ولا نستطيع أن نقول إن اللاشعور ضد الخلق لأن ذلك يتضمن أن هناك قيمة خلقية ولو معكوسة . ولكن الواقع أن اللاشعور منفصل عن عالم الخلق انفصالا تاما .

وهو يُهمل أوجه الخلاف بين الأشياء ولا يدرك إلا أوجه التشابه ، ومن هنا أتت خاصية الرمز (٣) فهو يرمز للشىء بما يشبهه ولو شبها عارضا ، مغفلا ما قد يكون بينهما من أوجه الخلاف . فقد يكون الاتفاق فى اللون بين شيئين سببا فى الاستجابة لهما كما لو كانا شيئا واحدا بالرغم من بعد الشقة بينهما ، فالظلام والرجل الأسود قد يستجيب لهما اللاشعور استجابة واحدة .

وأخيرا فان اللاشعور لا يدرك الفواصل الزمنية ، ويرى أن الماضى والحاضر شىء واحد ، ولعل خير مثال لذلك ما يحدث فى الأحلام من استعادة الماضى كما لو كان حاضرا .

واللاشعور هو المخبأ الذى نلقى فيه بكل ما يزعجنا ويروعنا من رغبات وأفكار ونقفل الباب دون هذه الرغبات والأفكار ونحكم الاقفال ، ثم نقيم العوائق والسدود الاضافية حتى نأمن تسرّبها الى ذاكرتنا ، فتصبح نسيا منسيا . ولكن هذه الرغبات والأفكار هى رغباتنا نحن وأفكارنا نحن ، هى إذن وثيقة الصلة بحياتنا النفسية ولابد من أننا نمر فى حياتنا اليومية مرارا بما يشبهها ، وهذه الحوادث المشابهة تجد صدى عميقا فى نفوسنا ، وفوق ذلك فان هذه الرغبات والأفكار لا تقبع فى مخبئها قانعة ، وإنما تتصايح وتلح وتثور ، وتحاول أن تصل من

---

(١) Impersonal

(٢) Amoral

(٣) Symbolism

obeikandl.com

مجاهل النسيان إلى نور الذاكرة . ولكن أصواتها لا تصل إلينا فى الغالب وإذا وصلت فإننا نتجاهلها ونتعامى عنها ، فنسمعها كما لو كانت آتية من الخارج أو نراها كما لو كانت غريبة عنا ، ونتمادى فى هذا التجاهل والتعامى ما وسعنا التمادى .

وقبل أن نختم هذا الباب يجب أن ننبّه القارئ إلى أن هذا التقسيم الطوبوغرافى للعقل إلى شعور وتحت شعور ولا شعور ليس إلا تقسيما وظيفيا يشبه تقسيمه إلى تذكُّر وتفكير وانفعال فى حياتنا الشعورية ، فكما أن التذكر خاصة من خصائص العقل فكذلك النسيان ، وكما أن التذكر له شروطه وأنواعه فكذلك النسيان ، وكما أننا نفسر التذكر على أساس قابلية العقل للتأثر واختزانه لهذه الآثار فيه فكذلك نفسر النسيان العادى على أساس قابلية العقل لاستبعاد الآثار المختزنة واسترجاعها تحت شروط خاصة ، فكذلك نفسر النسيان التام " بالتحديد الذى أوردناه " على أساس قابلية جديدة للعقل على نوع من الاختزان البعيد الغور بعدا يجعل هذا المخزون بعيدا عن متناول الشعور ، بل يقيم العقبات فى سبيل ظهوره ، ومع ذلك فالدلائل تدل على أنه موجود لم يعدم بتاتا .

هذه هى النظرة العلمية للّاشعور فهو كالشعور مجرد وسط يقوم بصفات ووظائف " نفسية " معينة .